المثقف ـ قضايا وأراء

البيان السوريالي وبيان (شعر ٦٩) / علي مجيد البديري

د. علي مجيد البديري

في مايس ١٩٦٩ صدر العدد الأول من مجلة (شعر٦٩)، وقد عمل على إصدارها الشعراء: (سامي مهدي، خالد علي مصطفى، فوزي كريم، وفاضل العزاوي)، في محاولة لجمع الجهود الشعرية الفردية

بشكل يجسد فعلاً مؤثراً في الوسط الأدبي، ويسعى إلى تجاوز منجز الرواد عبر تجربة متطورة تفيد من معطيات واقع الأحداث والأزمات في خلق فعلها التغييري المضاد. ولا يمكن استبعاد المؤثر الخارجي من دوافع إصدار هذه المجلة، ولعل من أبرز أشكاله مجلة (شعر) اللبنانية، ممثلة بأدونيس ورؤاه في النص الحداثي . إذ تُشخَّص لحظة الإبداع عند أدونيس حينما يكون المبدع متحرراً من هيمنة أية سلطة عليه، ويتجسد هذا التحرر في الجنون الذي يعدُّه أعلى مستويات الثورة الحقيقية، حيث "لا يخضع لأية سلطة ولا يتبع أي نمط من المتواضعات مهما كان نوعه"(١) .

إنَّ حضور أصداء رؤيا مجلة شعر هنا، يعني من وجهٍ آخر حضور أفكار أدونيس في حداثة الشعر، والتي بدورها لم تسلم من مؤثرات خارجية عديدة، تعد مفاهيم السريالية surrealism أكثرها فاعلية . لقد أريد لـ (مجلة شعر ٦٩)، ولعددها الأول خصوصاً، أن يحدث انعطافة جديدة في حركة الشعر العربي، عِبْر البيان الشعري الذي تضمنه، ووقَّعه الشعراء الأربعة أنفسهم . وفي الواقع أن مجال الحديث عن هذا البيان واسع جداً، وتثير العديد من أفكاره إشكاليات كثيرة في الحياة والثقافة والأدب، ولكننا سنتوقف قليلاً هنا عند ما يوضح قيمته، بوصفه موقفاً يحمل عنواناً على درجة كبيرة من الخطورة والأهمية، فمصطلح (البيان) يعني كتابة رؤيوية واعية، تقرأ ـ ببصيرة نقدية نافذة ـ واقعاً قائماً، وتشخص ملامحه، مقترِحة مشروعاً تطويرياً جديداً أو مغايراً للسائد والمألوف في الحياة التي يتوجه إلى معاينتها، على أنه ليس "فرضاً لرؤيةٍ ما بقدر ما هو دفع صريح للآخرين إلى الإرتباط بالقلق وتبني السؤال"(٢) .

في ضوء ذلك سنمر أولاً بشكل سريع ببياني السوريالية الأول عام ١٩٢٤، والثاني عام ١٩٢٩، اللذين كتبهما (أندريه بريتون) .

أراد البيان الأول أن يكون ذا نظرة عامة، توقفَ عند سلبيات الوضع الإنساني، واقترحَ الحلول بديلاً عما هو قائم، بعد هدمه وإزالته. وأشارَ إلى عدم حيادية الحياة إزاء طموح الإنسان، فهي تعيق سعيه نحو الحقيقة، وأن بلوغ الحرية إنما يتم عن طريق عوالم الخيال والهلوسة والحلم، بوصفها القوة المغيرة لواقع يعني التشتت والجمود.

ثم يتحدث البيان عن وضع الشعر من خلال بعض الشعراء، وينتقل ليعطي وصفاً لقوام الصورة الشعرية، وكيف أنها تتولد من خلق علاقة ما بين طرفين متباعدين، حيث تكتسب من خلال ذلك قوة محركة تفيد من قدرات الإنسان في الحلم والتخييل كما وضحها فرويد، وكذلك من فعل المخدر وتأثيره على الوعي . وبعد تجربة في كتابة نص مشترك يكتبه (بريتون) مع

أحد أصدقائه يعتمدان فيه اللاوعي، يعرف بريتون السوريالية بأنها " تلقائية، (أوتوماتيكية) نفسية نقية يقصد بها إلى التعبير شفهياً أو تحريرياً أو بأية طريقة أخرى، عن سير العمل الحقيقي للفكر، في غياب كل ضابط يمارسه العقل، خارج كل احتياط فني أو أخلاقي "(٣)

و أعاد البيان الثاني الدعوة إلى هذه المفاهيم، والتأكيد على ضرورة تبني التمرد والرفض والهدم لأفكار الالتزام والدين، على أن الجديد الذي أضافه هو إعادة النظر في بعض الأسماء الشعرية التي أشاد بإبداعها سابقاً، وأوضح ـ بتبريرات لم تبدُ مقنعة جداً ـ علاقة السوريالية،على صعيد الواقع، بالشيوعية، ودعا بصرامة إلى أن يكون المرء سوريالياً أو يختار الإنتحار، حينما يشعر بالابتعاد عن الخط السوريالي والإيمان بمقولاته .

لقد ادعى البيان لنفسه الدور التجديدي في الشكل والمضمون على السواء، وبصورة ثورية قائمة على الهدم من أجل البناء على وفق تصورات عن الوجود الإنساني والعملية الإبداعية اتسمت بالإرتباك، وعدم الوضوح .

و أراد البيان الشعري لـ (مجلة شعر ٦٩) أن يسلك نهج البيان السوريالي ويردد مفاهيمه ؛ فبدأ متحدثاً عما أسماه بـ (العالم الناقص)، وحركة الأشياء وعدم ثباتها، واستحالة الوصول إلى حقيقة ثابتة في إطار هذه الحركة، وأن الوجود النقي المتألق هو ما توقف عن الحركة وممارسة الفعل، فالموت نهاية لبهجة الوجود الإنساني ولكل صبوة ممكنة !، وحين يتحدث البيان عن الشعر يصف القصيدة الجيدة بأنها التي تسعى إلى ما أسماه بـ "حلم الوجود الأخير" عبر تساؤلاتها الوجودية، وسيكون هذا الوعي الجديد بديلاً عن تصورات الخلاص الميتافيزيقي، وكفيلاً بأن يوقف الشاعر على مأساة الوجود في هذا العالم الملغز . والشاعر الحقيقي هو من يسعى إلى الحقيقة، وهو وحش يهدم كل شيء ويحدق "بوعي تام" في عالمه الذي يعيشه، أما طريق الوصول إلى الرؤى الحلمية الخالقة فهو المخدرات والكتابة بين منطقتي النوم واليقظة.

و إذا ما انتقل القارئ مع البيان في موضوعاته وعناوينه الفرعية الأخرى: (.. الموقف السياسي والرؤيا الشعرية، ضوء الحقيقة يأتي من الشاعر، قوانين القصيدة ..) وغيرها، سيقف على هجين غير متجانس من الأفكار والمفاهيم التي تصل في بعض صورها إلى حد التناقض، مثلما هو الأمر في مسألة الوجود النقي الرافض للحركة، التي يبدأ البيان بالإشارة إليها، ليناقضها في موضع آخر يحتفي فيه بـ (الديالكتيك)، ويعتمد رؤى القائلين به!، وحينما يكرر البيان القول باستحالة الوصول إلى الحقيقة نراه يدعو الشاعر إلى أن يكون فاعلاً وهادماً ومغيراً، ويقترح له طرقاً للوصول إلى ذلك وتحقيقه.! بل يظهر التناقض بشكل واضح في تأكيده على معنى الوعي وضرورته في العملية الإبداعية عند الشاعر من جهة، ويصف من جهة أخرى طرق الوصول إلى الحقيقة، ويحددها بالحلم وغياب الوعي بالمخدرات .

من جانب آخر يقول البيان بعدم خضوع القصيدة الحقيقية إلى ضوابط معينة ومحددة تنظم الذائقة، ويَعدُّ الشكل التركيبي للقرآن الكريم دليلاً على عدم وجود شكل موحد للشعر !، متجاهلاً طبيعة القرآن الكريم وقدسيته، فهو ليس بكتاب أدبي وإن بلغت كشوفاته الروحية ولغته الذروة في الروعة والبلاغة ـ مثلما رأى البيان ـ .

ومن الغريب جداً أن يعد بيان (شعر٦٩) القصيدة ذات الولاء السياسي المعين، بياناً سياسياً يسقط في دائرة الجزئي ويبتعد عن الحقيقة، ثم يفصل بين الرؤيا الشعرية والرؤيا السياسية فصلاً مميتاً. بطريقة تثير العديد من الأسئلة، من مثل :

ألا يكون الوصول إلى العام والشمولي عبر تخطي الخاص والجزئي وعدم ملامسته أمراً مستحيلاً ؟ ألا يندرج السعي الخاص إلى الحقيقة، الذي يريده البيان، ضمن إرث متراكم من

الخطى المحمومة في هذا المجال، ويتعلق بجزئيات فعل السعي في البعد الزمني عبر الأجيال؟

أعتقد أن وراء هذه الاستخدامات المضطربة للمقولات والمصطلحات رغبة الاقتراب من ملامح السوريالية في بياناتها التي أرادت لنفسها وجوداً مؤثراً في سياقها الثقافي. على أن السوريالية لم تقع في مثل هذا التناقض الكبير فقد بقيت تنادي بتغليب اللاوعي في عملية الكتابة الإبداعية عبر المخدر والحلم، وظلت مدينة لفرويد وتشخيصاته في ميدان النفس.

تلتصق تجربة بيان (شعر٦٩) بسياقها وأفقها التاريخي التصاقاً كبيراً، فهي من نتاج ما بعد النكسة، لشعراء مهمين من جيل شعري مهم في تاريخ الشعر العربي الحديث، فليس بخافٍ أن النكسة أسهمت في توجه الأنظار إلى الآخر الغربي في نشاطه الثقافي الداعي إلى التحرر من القيود التي تعيق حركة الفكر، إضافة إلى أنَّ وعي الشاعر الستيني في العراق ـ في بدايته ـ اتسم بالذاتية والافتراق عن الوعي الجماعي، مما جعل الشاعر سريع التأثر بكل ما هو جديد ووافد . لا ينفي ذلك أن تكون لهذه التجربة خصوصيتها في تلقي السوريالية الغربية، ولكنني لا أتفق مع يمنحها حجماً أكبر ويعدها نواةً لجماعة أدبية في الحياة الثقافية العربية، كان من الممكن أن تنمو ـ لو قُدِّر لها آنذاك ـ بشكل كبير وفاعل . *

د.علي مجيد البديري

al_budyri72@yahoo.com

.....

إحالات

(١) الحداثة : فكرة في شعرأدونيس: محمد الخزعلي (مقال) عام الفكر ع٣، ١٩٨٨

(٢) حداثة السؤال : محمد بنيس :١٧

(٣) بيانات السوريالية: أندريه بريتون، ت.صلاح برمدا

* نشر البيان الشعري في مجلة شعر ٦٩، مايس ١٩٦٩، ص ٣ وما بعدها